

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَافِرْعَوْنَ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾

قال كلاً : لن يقتلك قوم فرعون (١).

فاذهبا بآياتنا : فاذهب أنت وأخوك بآياتنا، يعنى بأعلامنا وحججنا التى اعطيناك عليهم (٢).

إنا معكم مستمعون : من قوم فرعون ما يقولون لكم ويجيبونكم به (٣).
فقولاً إنا رسول رب العالمين : إليك (٤) وقال : ﴿رسول رب العالمين﴾ وهو يخاطب اثنين بقوله : ﴿فقولاً﴾ لأنه أراد به المصدر من أرسلت. يقال : أرسلت رسالته ورسولاً (٥).

أن أرسل معنا بنى إسرائيل : أي بأن أرسل معنا بنى إسرائيل (٦) أي أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه للخلصون، وهم معك في العذاب المهين (٧).

قال الله تعالى لموسى عليه السلام الذى خاف أن يعجل فرعون بالعقوبة عليه وعلى شقيقه هارون عليهما السلام : ﴿كلاً﴾ وهي كلمة فيها معنى الردع والزجر، والمعنى : أنته يا موسى وكفّ عن هذا القول. ويستجيب الله تعالى دعاء موسى عليه السلام ويهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. ويأمر الله تعالى

(١) تفسير الطبرى ٤١/١٩.

(٢) تفسير الطبرى ٤١/١٩.

(٣) تفسير الطبرى ٤١/١٩.

(٤) تفسير الطبرى ٤١/١٩.

(٥) تفسير الطبرى ٤١/١٩.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير ابن كثير ١٤٦/٦.

موسى وهارون عليهما السّلام أن يذهبا بآياته عزّ وجلّ الكُفْر إلى فرعون مصر الطّاغية، ويخبرهما عزّ وجلّ أنّه معهما يسمع كلّ ما يُقال ويرى كلّ ما يُفعل، ويأمرهما بأن يقولوا لفرعون الطّاغية : إنّهما رسولان إليه من ربّ العالمين، بأن يرسل معهما بنى إسرائيل، وأن يكفّ عن سؤمهم الخسف وتعذيبهم، وعن تقتيل أبنائهم واستعباد بناتهم، وأن يمكّن لبنى إسرائيل من ممارسة حرّيتهم المطلقة، وبخاصّة في مجال العبادة.

قَالَ الْمَرْبُّ بِكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

وفعلت فعلتك الّتي فعلت : الفعل : كناية عن كلّ عملٍ متعدٍّ أو غير متعدٍّ. فَعَلَ يَفْعَلُ فَعْلًا وفِعْلًا. فالاسم مكسور والمصدر مفتوح. وقوله تعالى في قصّة موسى عليه السّلام: ﴿وفعلت فعلتك الّتي فعلت﴾ أراد المرّة الواحدة كأنّه قال قتلت النفس قَتَلْتِكَ^(١) يعنى قتله النفس الّتي قتل من القبط^(٢).
وأنت من الكافرين : نعمتنا عليك^(٣) وديننا هذا الّذى تعيب^(٤).

امتثل موسى وهارون عليهما السّلام أمر ربّهما جلّ وعلا فذهبا إلى فرعون وبلّغاه رسالة ربّهما عزّ وجلّ، وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل، وأن يكفّ عن ظلمهم وسؤمهم الخسف.

ولما كان موسى عليه السّلام قد نشأ في بيت فرعون وظلّ فيه حتّى بلغ مبلغ الرّجال وقَتَلَ وهو في حدود الثلاثين الرّجل القبطيّ وفرّ إلى مدين حينما خاف أن

(١) لسان العرب: «فعل» وانظر تفسير الطّبري ٤١/١٩.

(٢) تفسير الطّبري ٤١/١٩.

(٣) تفسير الطّبري ٤١/١٩.

(٤) تفسير الطّبري ٤١/١٩.

بُنْصَ مِنْهُ فَإِنَّ فِرْعَوْنَ يُوْجِّهُ إِلَى مُوسَى الْحَدِيثِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ . قَالَ فِرْعَوْنَ
لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَسْلُوبِ التَّقْرِيرِ الْإِنْكَارِيِّ : أَلَمْ نَرْبِّكَ فِينَا وَبَيْنَ ظَهْرَانِنَا
وَلِيداً وَطِفْلاً رَضِيعاً وَلَبِثْتَ فِينَا وَتَقَلَّبْتَ فِي نَعْمَانَا مِنْ عَمْرِكَ وَزَهْرَةِ شَبَابِكَ سَنِينَ
عَدَداً . وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَعَرَفْتَ بِقَتْلِكَ الرَّجُلَ الْقَبْطِيَّ الَّذِي وَكَزْتَهُ بِيَدِكَ
فَخَرَّ صَرِيعاً ، وَأَنْتَ بِقَتْلِكَ أَحَدَ بَنِي جَنْسِي مِنَ الْكَافِرِينَ نَعْمَتِي عَلَيْكَ ، الْجَاهِلِينَ
إِحْسَانِي إِلَيْكَ .

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَى أَنْ عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

قال فعلتها : فعلت تلك الفعلة التي فعلت . أي قتلت تلك النفس التي
قتلت (١) .

إِذَا : أي حيثئذ (٢) .

وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ : وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله
علي . والعرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال فتقول : قد
جهل فلان الطريق وضل الطريق بمعنى واحد (٣) .
حكما : نبوة (٤) وعلم (٥) .

(١) تفسير الطبري ٤٢ / ١٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطبري ٤٢ / ١٩ .

(٤) تفسير الطبري ٤٢ / ١٩ .

(٥) الجلالين .

وتلك : تربية فرعون إياه^(١).

أن عبّدت بنى إسرائيل : أن اتخذتهم عبيداً لك ، يقال منه : عبّدت العبيد وأعبدتهم^(٢) يقول : وتربيتك إياي وتركك استعبادي كما استعبدت بنى إسرائيل نعمةً منك تمنّها عليّ بحق^(٣).

قال موسى عليه السّلام لفرعون فعلتُ تلك الفعلة آنذاك وقتلتُ تلك النفس الّتي حرّم الله تعالى قتلها إلّا بالحقّ وأنا من الجاهلين أن قتل النفس محرّمٌ عليّ. ففرت منكم لما خفت منكم أن تقتصّوا منّي وتقتلوني بسببه ، فوهب لي ربّي عزّ وجلّ ، منّا منه وفضلاً ، نبوةً وعلماً ، وجعلني واحداً من المرسلين الّذين أرسلهم الله تعالى لإخراج النّاس بإذنه عزّ وجلّ من الظّلمات إلى النّور.

وفيما يشبه الاستفهام الإنكارى يقول موسى عليه السّلام : وهل تربيتك لي وتركك استعبادي نعمةً تمنّها عليّ وقد جعلت بنى إسرائيل الّذين ولدتهم أمّهاتهم أحراراً ، عبيداً لك تسخرهم لخدمتك ، وتسومهم الخسف ، وتقتل أبناءهم ، وتستحيى نساءهم ! وإنّ لسان حال موسى عليه السّلام يقول لفرعون : من الّذى خول لك يا فرعون أن تستعبد بنى إسرائيل ، ومن الّذى أعطاك الحقّ كي تمنّ عليّ أنّك لم تجعلني عبداً من عبيدك . إنّك يا فرعون أعطيت نفسك ما لا تستحقّ ، وسلبت النّاس ما يستحقّون ، ظلماً منك وعدواناً ، طغياناً منك وبغياً . وإنّ أهمّ ما سلبت الآخرين ، وبخاصّة بنو إسرائيل ، حرّيتهم الّتي هي حقّ لهم كالماء والهواء .

(١) تفسير الطّبري ٤٢ / ١٩ .

(٢) تفسير الطّبري ٤٣ / ١٩ .

(٣) تفسير الطّبري ٤٢ / ١٩ .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾

وما ربّ العالمين : السؤال عن المجهول بما^(١).

جاء في الآية الكريمة الحادية والعشرين على لسان موسى عليه السلام القول: ﴿رَبِّي﴾ قال تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ويجيء على لسان فرعون هنا القول: ﴿وما ربّ العالمين﴾ بزيادة لفظ «العالمين» ويصحّ أن نفهم أنّ سؤال فرعون مترتب على كلام سمعه من موسى عليه السلام بهذا المعنى، وأنّ ثمة كلاماً آخر جرى بين موسى عليه السلام وفرعون قد تجاوزه السياق فهم منه فرعون أنّ ربّ موسى عليه السلام هو ربّ العالمين، جمع عالم، وهو كلّ موجودٍ سوى الله تعالى^(٢).

إنّ فرعون بباعث الكبر والغطرسة يسأل موسى عليه السلام مستخدماً: «ما» التي يُسأل بها عن المجهول. إنّ فرعون الطاغية يتظاهر بأنّه لا يعرف من هو ربّ العالمين وربّ كلّ شيء المستحقّ أن يُعبّد وحده دون سواه. إنّهُ يقول: ومن هذا الذي تزعم أنّه ربّ العالمين غيري؟ هكذا فسّره علماء السلف وأئمة الخلف^(٣) وأي شيء هذا الذي تزعم أنّه ربّ العالمين؟^(٤).

(١) الكشف ٢١٣/٢ وانظر ٤٢٢/٢.

(٢) انظر - مثلاً - تفسير القرطبي ١٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١٤٧/٦.

(٤) انظر الكشف ٤٢٢/٢.

قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

إن كنتم موقنين : إن كنتم موقنين أن ما تعينونه كما تعينونه فكذلك فأيقنوا أن ربنا هو رب السماوات والأرض وما بينهما^(١) أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة^(٢) وبأنه تعالى خالقه فأمنوا به وحده^(٣).

قال موسى عليه السلام : إن رب السماوات والأرض وما بينهما وخالق كل ذلك هو رب العالمين. إنكم إن كنتم موقنين أن ما تعينونه حق، وأن الله تعالى هو الذى له وحده دون سواه الخلق، فأيقنوا أن الله تعالى هو الذى له وحده دون سواه الأمر، فأفردوه بالعبادة وحده لا شريك له.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾

ألا تسمعون : الاستماع الإصغاء^(٤).

قال فرعون الطاغية لمن حوله من ملئه وأشراف قومه في أسلوب الاستفهام الاستنكاري: ﴿ألا تسمعون﴾؟ ألا تصغون إلى جواب موسى الذى ينبغى أن يُستنكر ويرفض، والذى يزعم فيه أن ثمة إلهاً غيرى! ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾^(٥).

(١) تفسير الطبري ٤٣ / ١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ١٤٨ / ٦.

(٣) الجلالين.

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني: «سمع» ٣٢٠ / ١.

(٥) سورة الكهف ٥.

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾

حيث إن فرعون الطاغية أشرك ملاءه في أثناء الحوار مع موسى عليه السلام، فإنه عليه السلام يوجه حديثه إلى الملاء، ويبني على كلامه السابق. إن رب العالمين رب السماوات والأرض وما بينهما وخالق كل ذلك هو رب ملاء فرعون ورب آبائهم الأولين. وإن لسان حال موسى عليه السلام يقول: إن رب السماوات والأرض وما بينهما هو كذلك رب فرعون ورب آبائه الأولين، وإن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾

قال فرعون لمثله إن رسولكم الذي يزعم أنه أُرْسِلَ إليكم لمجنون مغلوب على قواه العقلية بقوى خفية شريرة. إنه عليه السلام يقول - حسب زعم فرعون - كلاماً لا يتفوه به عاقل بل مجنون يدعى أن رب العالمين قد أرسله وأن فرعون ليس هو الرب الأعلى: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾. وتأكيداً لكبر فرعون وإصراره على ادعاء الربوبية والألوهية هو يوجه كلامه إلى المخاطبين في القول: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم﴾ وبناءً على ذلك فإن فرعون خارج حسب زعمه من دائرة رسالة موسى عليه السلام.

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

رب المشرق والمغرب وما بينهما : ملك مشرق الشمس ومغربها وما بينهما من شيء (١).

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٤٤.

إن كنتم تعقلون: إن كان لكم عقولٌ تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم^(١).

قال موسى عليه السلام، رداً على فرعون الذى أراد أن يستثير حمية ملئه وجاهليتهم، وخطاباً لأولئك الملأ: إن رب العالمين هو ربّ مشرق الشمس ومغربها وما بين المشرق والمغرب، إن كنتم أيها الملأ تستعملون عقولكم التى امتن الله تعالى بها عليكم استعمالاً صحيحاً وتفهمون ما يقال لكم وتسمعون سماع تدبر. إن كلَّ شىء في هذا الكون ممّا تقع عليه العيون وتدركه العقول وتستوعبه البصائر النيرة يدلّ على أن الله تعالى بيده وحده لا شريك له ملكوت كلّ شىء.

وفي كلّ شىء له آيةٌ *** تدلّ على أنه واحد^(٢).

ويلاحظ أن اتّهام فرعون موسى عليه السلام بالجنون أي بزوال العقل كان التوطئة لما جرى على لسانه عليه السلام في التذليل من إشارة إلى العقل واتّهام ضمنيّ للقوم بالجنون وبزوال العقل إن لم يؤمنوا بأن الله تعالى هو ربّ المشرق والمغرب وما بينهما.

وهكذا يأخذ بعض المعانى بحُجَز بعض، وكأنّ ثمة تحوّلاً مطّرداً من الكبير إلى الذى يليه. ويبدو ذلك جليّاً من ترتيب الألفاظ في الآيات الكريمات. لقد جاءت لفظة العالمين أولاً، جمع عالم، وهو كلّ موجود سوى الله تعالى، ثمّ جاء ذكر السّماوات والأرض وما بينهما، ثمّ جاء ذكر الآباء، أي النّاس، ومعروف بنصّ القرآن الكريم أن خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس. ثمّ كانت عودة إلى الحديث عن مشرق الشمس ومغربها وما بينهما، وهي جزء من أجزاء السّماوات والأرض التى كان الحديث عنها من ذى قبل، لأنّ المشرق والمغرب إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب^(٣).

(١) تفسير الطّبري ٤٤/١٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٢/١٠ وتفسير ابن كثير (حلبى) ٢٤/١.

(٣) مفردات الرّاجب الأصفهاني: «شرق» ٣٤١/١.

قَالَ لِّئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

قال فرعون لئن اتخذت يا موسى إلهاً غيري لأجعلنك واحداً من المسجونين الذين يظلمون في سجونى حتى يموتوا إن لم يتوبوا ويؤمنوا بى ويخلصوا الطاعة لى!

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

قال موسى عليه السلام: أتجعلنى يا فرعون من المسجونين ولو جئتك بشيء بين لك صدقى فيما أقول، ويوضح حقيقة ما أدعوك إليه .
ويلاحظ أن جملة: «جاء» في القرآن الكريم تستعمل دليلاً على القرب الزماني والمكاني والنفسى أو المعنوي. إن موسى عليه السلام قادرٌ بإذن الله تعالى على أن يجيء بالآية الواضحة على صدقه، والحجة البالغة على ما يدعو إليه .

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾

لاحظنا بشأن الآية الكريمة السابقة مجيء القول على لسان موسى عليه السلام: ﴿جئتك﴾ دليلاً على المجيء الفعلي والوصول، ونلاحظ هنا مجيء القول: ﴿فأت به﴾ وإذا كانت جملة: «جاء» تدلّ على القرب فإن جملة: «أتى» تدلّ على البعد الزماني والمكاني والنفسى أو المعنوي. وإن هذه القاعدة، وبخاصة حينما يجمع السياق بين الجملتين معاً، مطردة في القرآن الكريم كله. إن فرعون الطاغية يقول لموسى عليه السلام: إن كنت من الصادقين أنك رسول رب العالمين فأت بذلك الشيء المبين. وإن مجيء جملة: «أتى» على لسان فرعون دليل على استبعاده

إتيان موسى بذلك الشيء المبين، وتمنيـه عجز موسى عليه السلام أن يأتي بالحجة البالغة.

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ

فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾

هاتان الآيتان الكريمتان من سورة الشعراء جاء نظيرهما في الآية السابعة بعد المائة والثامنة بعد المائة من سورة الأعراف المكية الكريمة. والآية الكريمة الأولى تتحدث عن آية العصا، والآية الكريمة الأخرى تتحدث عن آية اليد، وهما آيتان من الآيات التسع أو المعجزات التسع التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام. وتتمام الآيات التسع السنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم،. جاء في سورة الأعراف^(١) قول الحق جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ وقول الحق جلّ وعلا^(٢): ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

والمعنى : فألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا هي ثعبانٌ يبين لفرعون والملا من قومه أنه ثعبان^(٣) وأدخل عليه السلام كفه في الفتحة المقطوعة من القميص التي يدخل فيها رأسه، وهي التي تُسمى بالجيب من الجيوب بمعنى القطع، حتى وصلت إلى إبطه وما تحت جناحه وجنبه، وضَمَّ جناحه إلى كفه وأخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين كضوء الشمس من غير برَصٍ ولا مرض، بعد أن كانت

(١) الآية ١٣٠.

(٢) سورة الأعراف ١٣٢، ١٣٣.

(٣) تفسير الطبري ٤٤ / ١٩.

أدماء.

والمعروف أنّ الثّعبان المبين أو الحيّة التي تسعى يعودان بإذن الله تعالى عصاً
مروّة أخرى بعد أن يأخذ موسى عليه السّلام بيده الثّعبان أو الحيّة. وبذلك تكون آية
العصا ذات شقّين اثنين. الشّقّ الأوّل حينما يلقي موسى عليه السّلام عصاه فإذا هي
نمبانٌ مبينٌ أو حيّة تسعى. والآية الكريمة من سورة الأعراف اكتفت بذكر هذا الشّقّ
الأوّل من الآية. والشّقّ الآخر حينما يأخذ موسى عليه السّلام الثّعبان أو الحيّة بيده
فإذا العصا بيده عليه السّلام. وإلى شقّي هذه الآية أشار قول الحقّ جلّ وعلا في
سورة طه^(١): ﴿وما تلك بيمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهشّ بها
على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. قال ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي
حيّة تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ وإنّ هذا هو الموضع
الوحيد في القرآن الكريم الذي كان الحديث فيه عن هذه الآية بشقّيها.

والمعروف كذلك أنّ يد موسى عليه السّلام الأدماء حينما يدخلها فتصل كفّه
إلى إبطه ويضمّ إليه جناحه ويضغط على كفّه بجانبه ثم يخرج يده تخرج يده عليه
السّلام بيضاء تتلأأ كالشمس من غير مرّضٍ ولا برص. فإذا أراد موسى عليه
السّلام أن تعود يده أدماء يكرّر العمليّة ذاتها ويخرج يده فتخرج أدماء كما كانت.
وبذلك تكون آية اليد كذلك ذات شقّين اثنين. والآية الكريمة من سورة الشعراء
وسورة الأعراف اكتفت بذكر هذا الشّقّ الأوّل من الآية بل إنّ في هذه الآية الكريمة
من سورة الشعراء وسورة الأعراف بلاغةً بالحذف، حيث إنّها تتجاوز مرحلة
إدخال موسى عليه السّلام يده من فتحة قميصه حتّى تصل كفّه إلى إبطه ويضمّم
جناحه إلى يده، اكتفاءً بدلالة المذكور على المحذوف. إنّ موسى عليه السّلام إنّما
ينزع يده ويخرجها بعد دخولها وهذا بيّن. وإلى شقّي هذه الآية أشار قول الحقّ
جلّ وعلا في سورة القصص^(٢): ﴿وأن ألق عصاك. فلما رآها تهتّر كأنها جانٌّ وليّ

(١) الآيات ١٧-٢١.

(٢) الآية ٣١ و٣٢.

مدبراً ولم يعقب . يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين . أسألك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴿ وإن هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي كان الحديث فيه عن هذه الآية بشقيها .

قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ

عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا

تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾

قال فرعون لأشراف قومه حوله إن هذا لساحر ذو علم بالسحر وبصر به . ويلاحظ أن فرعون يشير إلى موسى باسم الإشارة الدال على القرب : ﴿ هذا ﴾ ولا يذكر اسمه عليه السلام دليلاً على تعالى فرعون واستكباره .

وبقصد أن يهيج فرعون ملاءه ضد موسى ويصرفهم عن الإيمان به واتباعه هو يضرب على الوتر الذي يؤثر فيهم . إنه يدعى أن موسى عليه السلام يريد بسحره ، حسب زعم فرعون ، أن يخرج سكان مصر من القبط بسحره . وكيف يتم ذلك الإخراج ؟ أن ينضم الناس إلى موسى فتكون له الغلبة ويفعل ما يشاء .

وبعد أن أفهم فرعون ملاءه أن الخطر على مصالحهم وحياتهم قادم من جهة موسى العليم بالسحر حسب زعمه هو يسأل ملاءه الرأي ، ويطلب منهم المشورة . إن فرعون بزعمه أن موسى عليه السلام ساحر عليم يريد أن يخرج الملاء من أرضهم بسحره قد حدد نوع المشورة التي يريد . إنها المشورة التي تؤدي إلى اندحار موسى وهلاكه : ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .

(١) سورة يوسف ٢١ .

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

قالوا أرجه وأخاه: قالوا أرجئه وأخاه^(١) وآخر موسى وأخاه وأنظره^(٢).
وابعث في المدائن حاشرين: وابعث في بلادك وأمصار مصر حاشرين^(٣)
رجامعين^(٤) يحشرون إليك كل سحّار عليم بالسّحر^(٥).
قال ملاّ فرعون آخر موسى وأخاه هارون وأنظرهما، وأرسل في مدن
ملكك رسلاً يجمعون لك ويأتونك بكل شخص عظيم البصر بالسّحر وكبير
العلم به.

ويلاحظ مجيء جملة: ﴿يأتوك﴾ وقد علمنا أنّ جملة: ﴿أتى﴾ تستعمل في
القرآن الكريم دليلاً على البعد. والمراد هنا البعد المكاني، ويرتبط به البعد الزماني
تبعاً. وحينما يجمع الرّسل السّحرة البعيدين، فذلك معناه أنّهم يجمعون السّحرة
القريبين من باب الأخرى والأولى.

(١) تفسير الطّبري ٤٥/١٩.

(٢) تفسير الطّبري ٤٥/١٩.

(٣) تفسير الطّبري ٤٥/١٩.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ٤٥/١٩.

فَجَمَعَ السَّحَرَةُ

لَمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾

لميقات يوم معلوم : لوقت واعد فرعون لموسى الاجتماع معه فيه من يوم معلوم وذلك يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى^(١) والميقات : الوقت المضروب للشئ والوعد الذى جعل له وقت^(٢).

هل أنتم مجتمعون : لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة لموسى أو للسحرة فلعلنا نتبع السحرة^(٣).

لعلنا نتبع السحرة : معنى لعل ههنا كي : يقول : كي نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين موسى^(٤).

فجمع فرعون السحرة الذين أتى بهم من كل أنحاء مصر في الوقت المحدد للمباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون من اليوم المعلوم وهو يوم العيد الذى يتزين الناس فيه ويجتمعون ضحى ذلك اليوم، وهو وقت انبساط الشمس وامتداد النهار^(٥) وحث بعض الناس بعضاً على الاجتماع وحضور المباراة، آمليين أن يغلب السحرة موسى عليه السلام، قائلين : لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. ولا تقول الغوغاء : لعلنا نتبع الحق. وهكذا تكون عقول الغوغاء في آذانهم ويتبعون حكاهم.

(١) تفسير الطبرى ٤٥ / ١٩.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني : «وقت» ٦٨٦ / ١.

(٣) تفسير الطبرى ٤٥ / ١٩.

(٤) تفسير الطبرى ٤٥ / ١٩.

(٥) مفردات الراغب الأصفهاني : «ضحى» ٣٨٢ / ٢.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ

قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

فلما جاء السحرة ووصلوا قالوا لفرعون إن لنا لأجراً وجُعلاً إن كنا نحن
الذين غلبنا بسحرنا موسى؟ وهكذا يفكر السحرة في منفعتهم أولاً، لأنهم
أصحاب منفعة وليسوا أصحاب مبدأ. وشأن السحرة هنا شأن أصحاب المنافع
والمصالح. المنفعة الشخصية أولاً، وعلى الدنيا الخراب.
ويبادر فرعون الطاغية إلى تلبية طلب السحرة أجراً إن كانوا هم الغالبين،
ويزيدهم إلى الأجر فضل جاء ومزيد رتبة بأن يقربهم حيثئذ منه ويرفع مكانتهم
عنده.

ويلاحظ أن ما يطلبه السحرة، وما يعد فرعون بتقديمه للسحرة، متاع الدنيا
الرخيص، دون أن يكون للحق أدنى اعتبار.

قَالَ لَهُم مُّوسَى الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ

﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

فإذا هي تلقف ما يأفكون: فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية

والسّحر الّذى لا حقيقة له، وإنّما هو مخايل وخدعة^(١).

فألقي السّحرة ساجدين: خرّوا لوجوههم سجّداً لله مذعنين لله بالطّاعة، مقسّرين لموسى بالّذى أتاهم به من عند الله أنّه هو الحقّ وأنّ ما كانوا يعملونه من السّحر باطل^(٢).

تجاوز السيّاق شيئاً من الحوار الّذى جرى بين موسى عليه السّلام والسّحرة، ومن ذلك تخيير السّحرة موسى عليه السّلام بين أن يبدأ هو المبارزة أو أن يبدأوا. لقد جاء في سورة طه^(٣) - مثلاً - قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قالوا يا موسى إمّا أن تلقى وإمّا أن نكون أوّل من ألقى﴾. قال بل ألقوا^(٤) وجاء في سورة الأعراف^(٤) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قالوا يا موسى إمّا أن تُلقَى وإمّا أن نكون نحن الملقين﴾. قال ألقوا^(٤).

إنّ موسى عليه السّلام يطلب من السّحرة، بإلهام من الله تعالى، أن يبدأوا بالإلقاء، كي ينزلوا بثقلهم ابتداءً، فتكون هزيمتهم نكراء أمام فرعون وملئه، ويكون نصره عليه السّلام نصراً مبيناً. فألقي السّحرة حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون وعظمتهم وسلطانهم إنّنا لنحن الغالبون موسى، المنتصرون عليه في مجال السّحر والتّخيل.

ويلاحظ أنّ السيّاق يقدّم في الذّكر الحبال على العصي دليلاً على شدة قرب الحبال شكلاً من شكل الحيّات والأفاعى والثّعابين بالقياس إلى العصي. ويلاحظ كذلك الدّرك الّذى انتهى إليه السّحرة قبل أن يؤمنوا حينما يذكرون اسم فرعون الطّاغية ابتداءً ولا يذكرون اسم الله تعالى. لقد أخزاهم الله تعالى وهزمهم شرّاً

(١) تفسير الطّبري ٤٦/١٩.

(٢) تفسير الطّبري ٤٦/١٩.

(٣) الآية ٦٥ و٦٦.

(٤) الآية ١١٥، ١١٦.

هزيمة وفضحهم يوم عيدهم في وضح النهار على رؤوس الأشهاد.
لقد ألقى موسى عليه السلام، بإلهام من الله تعالى، عصاه فإذا هي، لهول مفاجأة السحرة وفرعون وملئه والناس، تبتلع ما يأفكون ويكذبون ويقلبون سحرهم من حبالٍ وعصيٍّ حياتٍ تسعى، وثعابين تجرى، بقصد صرف الناس عن الحق إلى باطلهم.

ولما كان السحرة يمثلون قمة السحر في كل عصرٍ ومصر، ولا يخفى عليهم السحر والتمويه، من الحق والصدق، فإنهم حينما رأوا عصا موسى تنقلب بإرادة الله تعالى حيّةً تسعى، وتبتلع على الفور كل ما سال به الوادي من حياتٍ تسعى وثعابين تتلوى انقلبت عن الحبال والعصي بفعل سحرهم، لم يملك السحرة إلا الإذعان للحق، والسجود لرب العالمين، وإعلان الإيمان برب موسى وهارون عليهما السلام.

لقد فطن العلماء إلى أن صيغة المبني للمجهول: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ترمي إلى تلك القوة الخيرة الخفية الغالبة التي حملت السحرة على السجود لرب العالمين وإعلان الإيمان. إنهم لم يملكوا سوى الاستجابة لتلك القوة القاهرة وها هم أولاء يبادرون إلى السجود على وجوههم لرب العالمين. وإن السحرة ليعلمون لحظة الهزيمة، أمام فرعون وملئه وسائر الناس، بأعلى أصواتهم إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون وفرعون وملئه وسائر الخلق أجمعين.

ما أعظم فضل الله تعالى على السحرة حينما شرح عز وجل صدورهم للإسلام، وأنطقهم بكلمة الحق في ذلك الموقف العصيب. إن زعم فرعون أنه رب قومه الأعلى قد ذهب أدراج الرياح، وإن السحرة الذين أتى بهم لنصرته هم أول من أعلن إيمانه بعد تأكيد السحرة أن ما جاء به موسى عليه السلام آية من آيات الله تعالى التي أيّد بها موسى عليه السلام. إن آية موسى عليه السلام ليست من السحر في شيء.

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُقِطَعَنَّ أَيْدِيكُمْ
 وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
 إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَظْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا
 أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

لا ضير : لا ضرر علينا . وهو مصدر من قول القائل : قد ضارَّ فلانُ فلاناً
 فهو يضير ضيراً ، ومعناه لا ضرر^(١) .

أن كنّا أوّل المؤمنين : بأن كنّا أوّل المؤمنين في زماننا^(٢) . ولأن كنّا أوّل من
 آمن بموسى وصدّقه بما جاء به من توحيد الله وتكذيب فرعون في ادّعائه بالربوبية
 في دهرنا هذا وزماننا^(٣) .

قال فرعون للسّحرة في أسلوب الاستفهام الإنكارى : آمنتُم لموسى
 واستسلمتم له وأذعنتم قبل أن أعطيكم الإذن بالإيمان به والاستسلام والإذعان . إنه
 حقّاً لكبيركم ورئيسكم الذى علّمكم السّحر ولهذا غلبكم بالنوع من السّحر الذى
 لم يعلمكم إيّاه فلسوف تعلمون ما أفعل بكم من سوء وأنزل عليكم من عذاب .
 لأقّطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى
 وبالعكس ، ولأصلّبنكم على جذوع النّخل أجمعين حتّى تنزفوا وتموتوا ولا يبقى
 من واحدٍ منكم عينٌ تطرف .

(١) تفسير الطّبرى ٤٦/١٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبرى ٤٦/١٩ .

قال السّحرة الذين كانوا قبل قليلٍ كافرين فهداهم الله تعالى للإيمان : لا ضير علينا ولا ضرر . إنّنا إلى ربّنا جلّ وعلا منقلبون وراجعون بعد الموت ، سواءً كان موتنا بفعلك يا فرعون أو حتف أنوفنا . إنّ كلّ ما يجرى علينا هو بعلم الله تعالى وبإذنه : ﴿ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾^(١) إنّنا نطمع ونرجو أن يغفر لنا ربّنا عزّ وجلّ خطايانا وذنوبنا من السّحر والكفر لأنّنا كنّا بتوفيق الله تعالى أوّل المؤمنين بموسى عليه السّلام في زماننا المصدّقين له . قال عبد الله بن عبّاس : كانوا في أوّل النّهار سحرة ، وفي آخر النّهار شهداء^(٢) .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾

أن أسر بعبادي : أن سر بني إسرائيل ليلاً من أرض مصر^(٣) .
حاشرين : جامعين الجيش^(٤) .
لشردمة : الشردمة الجماعة المنقطعة^(٥) وشرذمة كلّ شيء بقيته القليلة^(٦) .
وإنّهم لنا لغائظون : فاعلون ما يغيظنا^(٧) .

(١) سورة الأنعام ١٣٧ .

(٢) تفسير الطّبري ١٦ / ١٤٢ .

(٣) تفسير الطّبري ١٩ / ٤٧ .

(٤) الجلالين .

(٥) مفردات الرّاعب الأصفهاني : «شرذم» ١ / ٣٤٠ .

(٦) تفسير الطّبري ١٩ / ٤٧ .

(٧) الجلالين .

وإنا لجميع حاذرون: اختلفت القرآء في قراءة ذلك. فقرأته عامة قرآء الكوفة: ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ وقرأ ذلك عامة قرآء المدينة والبصرة: ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ بغير ألف^(١) قال القرآء^(٢): «وكان الحاذر الذي يحذرك الآن. وكان الحذر المخلوق حذراً لا تلقاه إلا حذراً».

قرن فرعون الطاغية فعله بقوله، ونفذ تهديده للسحرة، واستمر يسوم بني إسرائيل الخسف، وأصر على تكذيب موسى عليه السلام رغم الآيات التسع التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام دليلاً على صدقه وأنه رسول رب العالمين. لقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن سر ليلاً بعبادى بني إسرائيل باتجاه البحر. إنكم متبعون ومطاردون من فرعون وملئه. وفعل موسى عليه السلام ما أمره الله تعالى به. فأرسل فرعون على الفور إلى سائر أنحاء مصر رسلاً يجمعون له الجند ويحقرون بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام. ومما يذيعونه في الناس: إن بني إسرائيل هؤلاء لطائفة قليلة العدد عديمة الخطر. وإنهم ليأتون من الأفعال ما يغيظنا ويشير سخطنا. وإنا جميعاً يقظون لهم، حاذرون منهم، مستعدون لسحقهم وإبادتهم. ما أسهل المقال وأصعب الفعال.

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾

فأخرجنا فرعون وملأه من حدائق ذات بهجة وعيون متدفقة، وأموال لا حصر لها من الذهب والفضة وما إليهما، ومقام كريم، ومكان رفيع، ومكانة عالية. الأمر كذلك والشأن كما بينا. وأورثنا كل تلك النعم بني إسرائيل. وإذا

(١) انظر تفسير الطبري ٤٨/١٩.

(٢) معاني القرآن للقرآء ١٨٠/٢.

كان بعض بنى إسرائيل قد بقى في مصر بعد هلاك فرعون وخنده فذلك معناه أن بنى إسرائيل قد ورثوا فعلاً تلك النعم التي سلبها الله تعالى فرعون وملأه. وإذا كان كل بنى إسرائيل قد خرج مع موسى عليه السلام فذلك معناه أن الله تعالى قد منح بنى إسرائيل في الشام من النعم مثل ما منح في مصر فرعون وآله من النعم فكفروا فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر. وكأن لسان الحال يحث بنى إسرائيل وكل الذين خصهم الله تعالى بنعمه على أن يشكروا لله تعالى نعمه ويحذروهم من كفران النعم.

فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ

كَلَّا إِن مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ

بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

وَأَزَلَفْنَا ثَمَ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾

فاتبعوهم : يقول ابن القيم رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتاب الفوائد، بشأن جملة : «فاتبعه» في قول الحق جلّ وعلا من سورة الأعراف^(١) : «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين» : «ولم يقل تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى»^(٢).

(١) الآية ١٧٥.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ١٣٣ تخريج أحمد راتب عرموش الطبعة السابعة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦ م دار النفائس بيروت.

مشرقين : حين أشرق الشمس ، وقيل : حين أصبحوا^(١) .
 فلما تراءى الجمعان : فلما تناظر الجمعان ، جمع موسى وهم بنو إسرائيل ،
 وجمع فرعون وهم القبط^(٢) .
 قال كلاً : ليس الأمر كما ذكرتم كلاً لن تدركوا^(٣) .
 سيهدين : سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه^(٤) .
 كل فرق : كل طائفة من البحر لما ضربه موسى^(٥) والفرق : القطعة المنفصلة ،
 ومنه الفرقة للجماعة المتفردة من الناس^(٦) والفرق يقارب الفلق ، ولكن الفلق يقال
 اعتباراً بالانشقاق ، والفرق يقال اعتباراً بالانفصال^(٧) .
 كالطود العظيم : كالجبل العظيم^(٨) .
 وأزلفنا ثم الآخرين : وقربنا هنالك آل فرعون من البحر وقدمناهم إليه ،
 ومنه قوله^(٩) : ﴿وَأَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى قربت وأدنيت^(١٠) .
 ثم أغرقنا الآخرين : ثم أغرقنا فرعون وقومه من القبط في البحر بعد أن
 أنجينا موسى منه ومن معه^(١١) .

(١) تفسير الطبري ٤٩ / ١٩ .

(٢) تفسير الطبري ٤٩ / ١٩ .

(٣) تفسير الطبري ٤٩ / ١٩ .

(٤) تفسير الطبري ٤٩ / ١٩ .

(٥) تفسير الطبري ٥٠ / ١٩ .

(٦) مفردات الراغب الأصفهاني : «فرق» ٤٨٨ / ٢ .

(٧) مفردات الراغب الأصفهاني : «فرق» ٤٨٨ / ٢ .

(٨) تفسير الطبري ٥٠ / ١٩ .

(٩) سورة الشعراء ٩٠ .

(١٠) تفسير الطبري ٥١ / ١٩ .

(١١) تفسير الطبري ٥٢ / ١٩ .

لقد تبع فرعون وآله وجنده موسى عليه السلام وبنى إسرائيل وطاردوهم
وإدركوهم وقت شروق الشمس. فلما رأى كل فريق خصمه قال أصحاب موسى
عليه السلام من بنى إسرائيل: إنا لمدركون حقاً من فرعون وجنوده، لأنّ عدوّ الله
تعالى خلفنا والبحر أمامنا. قال موسى عليه السلام المتوكّل على الله تعالى حقّ
التوكّل: ليس الأمر كما ذكرتم، إنا لن يدركنا فرعون وجنوده. إنّ معي ربّي جلّ
وعلا بالتأييد والنصر وسيهديني سواء السبيل.

فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، وهو
البحر الأحمر أو بحر القلزم، فضربه موسى عليه السلام بعصاه، فانفلق البحر
فكان كل فرق منه وطائفة كالطود العظيم والجبل الكبير. وكان بين تلك الطوائف
من الماء أو الجبال منه طرقٌ معبّدةٌ يابسةٌ بإرادة الله تعالى بعدد طوائف بنى إسرائيل
الاثنتي عشرة. ويلاحظ أنّ انفلاق البحر امتدادٌ لمعجزة العصا، وهي إحدى الآيات
التسع البينّات التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام. لقد سلك موسى عليه
السلام وبنو إسرائيل في الاثني عشر طريقاً في البحر، وقرب الله تعالى فرعون
وآله وجنده من البحر حتّى سلّكوه محاولين اللحاق ببنى إسرائيل. وأنجى الله
تعالى موسى ومن معه أجمعين بأن وصلوا جميعاً برّ الأمان سالمين غانمين، ثمّ
أغرق الله تعالى موسى وملائه وجنوده أجمعين:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

إِنَّ فِي إِغْرَاقِ اللَّهِ تَعَالَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَجْمَعِينَ وَإِنْجَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْغَرَقِ لَآيَةً بَيِّنَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَطْلُوقَةِ وَسُنَّتِهِ بِأَنْ يَأْخُذَ الْمَصْرِيِّينَ عَلَى الْكُفْرِ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ وَيَنْصُرَ رُسُلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا دَائِمًا وَأَبَدًا. وَمَا كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِ مَكَّةَ مُؤْمِنِينَ رَغْمَ كُلِّ تِلْكَ الْآيَاتِ وَالنَّذْرِ. وَإِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ وَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَهُوَ الْعَزِيزُ فِي مَلَكِهِ الَّذِي لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ.

وَلَيْسَ بِخَافٍ أَتْنَا أَمَامَ تَسْلِيَةٍ لِلْمُصْطَفَى ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَتَثْبِيتِ أَفئدة.

(٣)

(إبراهيم عليه السلام يدعو إلى توحيد الله
تعالى، وثواب المتقين، وعقاب الغاوين)
الآيات (٦٩-١٠٤)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ
 نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
 نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
 تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
 كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾

واتل عليهم نبأ إبراهيم: واقصص على قومك من المشركين يا محمد خبر إبراهيم (١).

إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون: حين قال لأبيه وقومه أي شيء تعبدون (٢).
 فنظّل لها عاكفين: فنظّل لها خدماً مقيمين على عبادتها وخدمتها (٣) والعكوف
 الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له (٤).
 فإنّهم عدوّ لى إلّا ربّ العالمين: العدو بمعنى الجمع. ووحد لأنّه أخرج
 مخرج المصدر مثل القعود والجلوس. ومعنى الكلام: أفرايتم كلّ معبودٍ لكم
 ولآبائكم فإنّي منه برىء لا أعبده إلّا ربّ العالمين (٥).

واقصص يا محمد على قومك من مشركي مكة الخبر المهمّ المفيد لإبراهيم
 أبى الأنبياء، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه، حين قال لأبيه آزر
 المشرك وقومه المشركين: أي شيء تعبدونه من دون الله تعالى؟ قالوا نعبد أصناماً

(١) تفسير الطبري ٥٢/١٩.

(٢) تفسير الطبري ٥٢/١٩.

(٣) تفسير الطبري ٥٢/١٩.

(٤) مفردات الرّاعب الأصفهاني: «عكف» ٤٤٥/٢.

(٥) تفسير الطبري ٥٣/١٩.

فنظّل على خدمتها قائمين، وعلى عبادتها دائمين. قال إبراهيم عليه السلام: هل تسمعكم تلك الآلهة من الأصنام حينما تنادونهم وتسالونهم، أو ينفعونكم حينما تعبدونهم، أو يضرّونكم حينما تهجرونهم؟ قالوا: لا يسمعوننا، ولا يستجيبون لنا، ولا ينفعوننا، ولا يضرّوننا، ولكننا وجدنا آباءنا مثل ذلك يفعلون، وإنّا على آثارهم مهتدون، وجرياً على عادتهم مقتدون. قال إبراهيم عليه السلام: أفرأيتم ما كنتم تعبدون من دون الله تعالى، أنتم وآباؤكم الأولون، وأجدادكم الأقدمون، فإنّهم عدوّ لى لا أعبده إلا ربّ العالمين فإنّى أفرده بالعبادة وحده دون سواه.

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

ويستمرّ إبراهيم عليه السلام مخاطباً قومه المشركين، ناعثاً معبوده ربّ العالمين الذى لا إله غيره ولا معبود بحقّ سواه عزّ وجلّ. إنّ معبود إبراهيم عليه السلام هو الله تعالى الذى خلقه وأوجده من العدم والذى يهديه الصراط المستقيم. فلله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر. والله تعالى هو الذى يطعم إبراهيم عليه السلام حينما يجوع، ويسقيه حينما يظمأ. وإذا مرض إبراهيم عليه السلام خلال عمره الذى قدره الله تعالى له فإنّ ربّ العزّة والجلال هو الذى يشفى إبراهيم عليه السلام. ومع أنّ ربّ العزّة والجلال هو الذى يقضى بالمرض وبالشفاء، فإنّ إبراهيم عليه السلام المصطفى المختار الذى أدبه ربّه جلّ وعلا فأحسن تأديبه ينسب المرض إليه والشفاء إلى الله تعالى. والله تعالى هو الذى يميت إبراهيم عليه السلام حينما يقضى عليه الموت ثمّ يحييه يوم القيامة لفصل الحساب. والله تعالى هو الذى يطعم إبراهيم عليه السلام أن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه يوم الدين والجزاء، الثواب والعقاب.

ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام يبدأ بالإشارة إلى خلق الله تعالى الخلق ثم هدايته لهم كي يقوموا بما نيظ بهم من أعمال. كما يلاحظ أن كل النعوت في الآيات الكريمة قد جاءت في الترتيب المنطقي التاريخي الذي لا يمكن أن تجيء في غيره. إن هذه النعوت بعض مظاهر قدرة رب العالمين رب إبراهيم عليه السلام المستحق أن يعبد وحده دون سواه، وليس الآلهة العاجزة.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾
 وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
 النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
 يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
 سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا: نبوة^(١) وعلمًا^(٢).

واجعل لي لسان صدق في الآخرين: واجعل لي في الناس ذكراً جميلاً وثناءً حسناً باقياً فيمن يجيء من القرون بعدى^(٣) حتى لا تكذبني الأمم. فأعطاه الله ذلك. فإن اليهود آمنت بموسى وكفرت بعيسى. وإن النصارى آمنت بعيسى وكفرت بمحمد ﷺ. وكلهم يتولّى إبراهيم^(٤).

واجعلني من ورثة جنة النعيم: وأورثني يا رب من منازل من هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة وأسكنني ذلك^(٥).

إن إبراهيم عليه السلام الحليم الأواه المنيب ليدعو ربه جلّ وعلا الذي لا

(١) تفسير الطبري ٥٤/١٩.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطبري ٥٤/١٩.

(٤) تفسير الطبري ٥٤/١٩.

(٥) تفسير الطبري ٥٤/١٩.

تنفذ خزائنه، والذي وسعت رحمته كل حي وشيء. إنه يدعوا ربه عز وجل أن يهبه من فضله نبوةً وعلماً لدنياً وهيباً، وأن يلحقه بالصلّاحين من عباده جلّ وعلا الذين جاء ذكرهم في هذه الآية الكريمة من سورة النساء^(١) قال عزّ من قائل: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً﴾ ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام يدعو ربه عز وجل أن يلحقه بالصلّاحين وأن يجعله تبعاً لهم وواحداً منهم. ومعروف أن المنعم عليهم في الآية الكريمة يبدأون بالمرسلين فالنبيين ويتنهون بالصلّاحين. إن إبراهيم عليه السلام يدعو الله تعالى أن يجعله من الصّالحين الذين تفضل الله تعالى فقبل أعمالهم الصّالحة. وإن ربّ العزة والجلال الذي لا حدّ لفضله ليكرم إبراهيم بالرسالة، وهي أجلّ هبة يمنحها الله تعالى واحداً من المنعم عليهم، ويجعله واحداً من أولى العزم من الرسل الخمسة، ويجعله أباً للأنبياء، فكلّ الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام، من ولديه إسحاق وإسماعيل عليهما السلام، ويصطفيه الله تعالى بالخلّة. إلى غير ذلك من نعم الله تعالى التي لا تحصى على إبراهيم عليه السلام.

ويستمرّ إبراهيم عليه السلام في سؤاله عز وجلّ من فضله. إنه يسأل الله تعالى أن يجعل له لسان صدق في الآخرين، وذكراً حسيناً وثناءً جميلاً من كلّ الأمم أتباع الرّسالات السماوية. وقد استجاب الله تعالى دعاء خليله إبراهيم عليه السلام. إن اليهود والنصارى يزعمون أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً في ادّعاء اليهود نصرانياً في ادّعاء النصارى، وقد أكذبهم الله تعالى أجمعين. قال عزّ من قائل^(٢): ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وقال تعالى^(٣): ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت

(١) الآية ٦٩.

(٢) سورة آل عمران ٦٧.

(٣) سورة آل عمران ٦٥.

نُورَة وَالْإِنْجِيل إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَاءَ، وَمِنْ هُنَا بَعَثَ اللَّهُ ﷻ إِلَى مُحَمَّدًا ﷺ بِالنَّسْخَةِ الْكَامِلَةِ الْخَاتِمَةِ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَاءِ. جَاءَ فِي سُورَةِ بُحُل (١) قَوْلُ الْحَقِّ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً بَاقَةً فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَيَسْتَمِرُّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُؤَالِهِ عِزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ. إِنَّهُ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَصْحَابِ جَنَّةِ النَّعِيمِ بِأَنْ يَرِثَ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ الَّتِي كَانَتْ مَعْدَةً لِأُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَلْ عَمِلُوا بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَلَخَلَوْهَا.

وَلَا يَنْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ الَّذِي كَانَ قَدْ وَعَدَهُ بِأَنْ يَسْلَمَ لِلَّهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لِأَبِيهِ ذَنْبَهُ فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ. وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ آزَرَ نَكَثَ بِوَعْدِهِ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ضَلَالِهِ وَكُفْرِهِ وَلِهَذَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ. جَاءَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ (٢) قَوْلُ الْحَقِّ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

وَبَعْدَ أَنْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَلَّا يُخْزِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ يَبْعَثُ عِبَادَهُ بِإِدْخَالِهِ النَّارَ. وَهَكَذَا تَتَجَلَّى الْحَشْيَةُ فِي أَرْفَعِ صُورِهَا لِأَنَّهَا ثَمَرَةٌ كُلُّ مَنْ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ يَرْجُو الْجَنَّةَ وَيَخْشَى النَّارَ. وَحِينَمَا يَسْأَلُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عِزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ أَوَّلًا، وَيَسْأَلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَذَلِكَ مَعْنَاهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ يَقْدَمُ لَنَا

(١) الْآيَات ١٢٠-١٢٣.

(٢) الْآيَةُ ١١٤.

نحن المسلمين النموذج المسلم لله تعالى رب العالمين اليقظ، الحذر، الذي يعرف أين ينتهي قدره، الذي لا يأمن مكر الله تعالى. وتلك نغوت حسنة في المسلم لله تعالى رب العالمين، الذي يعلم أن دخول الجنة برحمة الله تعالى الذي يتفضل بقبول الأعمال الصالحة التي يريد العبد بها وجه ربه الأعلى عز وجل.

وفي يوم القيامة لا ينفع الإنسان ماله ولو كان له ما في الأرض جميعاً ومثله معه، كما لا ينفعه بنوه مهما يكثر عددهم ويثقل وزنهم في الدنيا، لكن من أتى الله تعالى بقلب سليم خالٍ من الشرك مملوء بالصّلاح والتقوى فإن ذلك القلب ينفع صاحبه، الذي حول إيمان القلب نطقاً باللسان، وعملاً بالجوارح والأركان، مبتغياً بكل ذلك وجه ربه الأعلى وحده لا شريك له.

ونحن في غنى عن القول إن المعاني ترتب في الآيات الكريمات الترتيب المنطقي الذي لا يغنى سواه.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ

﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَتَنْصَرُونَ ﴿٩٢﴾ مَنْ دُونَ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ

أَوْ يَنْصَرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

وأزلفت الجنة للمتقين: وأدريت الجنة وقربت للمتقين الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا^(١).

وبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ: وأظهرت النار للذين غووا فضلوا عن سواء السبيل^(٢).

فكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ: فرمى ببعضهم في الجحيم على بعض وطرح بعضهم على بعض منكبين على وجوههم^(٣) والكب إسقاط الشيء على وجهه.

(١) تفسير الطبري ٥٥/١٩.

(٢) تفسير الطبري ٥٥/١٩.

(٣) تفسير الطبري ٥٥/١٩.

يقال: كَبَّ وكَبكب نحو كَفَّ وكَفكف وصرَّ الرِّيح وصرصر^(١) والكبكية: الرَّمي في الهوة، وقد كبَّبه. وفي التَّنزيل العزيز: ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هَمَّ وَالْغَاوُونَ﴾ قال الأليث: جُمعوا ثم رُمي بهم في هوة النار. وقال الزَّجاج: كبكبوا: طُرِح بعضهم على بعض. وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا أُلقي ينكب مرة بعد مرة حتَّى يستقرَّ فيها^(٢).

وجنود إبليس أجمعون: كلَّ من كان من تبعه، من ذرَّيته كان أو من ذرية آدم^(٣).

كان الحديث عن يوم القيامة موطناً للحديث عن الجنة وأهلها والنار وأهلها. إن الجنة قُرِّبت وأدْنيت للمتقين الذين جعلوا طاعة الله تعالى وقايةً من النار، والذين بلغوا مرتبة التقوى. وإن مجيء جملة: ﴿وَأَزَلَفْتُ﴾ في صيغة الزمن الماضي المبني للمفعول يومئذ إلى تأكّد حدوث ذلك، وكأنَّ الجنة قد قُرِّبت فعلاً للمتقين. وإنَّ الشَّيء ذاته يقال بشأن بروز الجحيم للغاوين وظهور النار للمجرمين. إن جملة: ﴿وَبُرِّزَتْ﴾ تومئذ إلى تأكّد حدوث ذلك للغاوين المنحرفين عن سواء السبيل.

وفي ذلك اليوم المجموع له النَّاس المشهود يقال للغاوين أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله تعالى هل ينصرونكم في هذا اليوم من عذاب الله تعالى أو هل ينصرون أنفسهم وينقذونها؟ لقد غاب عنهم المعبودون الزائفون في ذلك الموقف العصيب، لقد رُمي بأولئك الكافرين فسقطوا منكبين على وجوههم في هوة النار متقلبين على تلك الأوجه متدحرجين حتَّى انتهوا إلى قاع جهنم، كما رُمي بالغاوين من القادة وبنجود إبليس أجمعين الذين أطاعوه من الجن والإنس، وأُلقي بعضهم في الجحيم على بعض.

(١) انظر مفردات الرَّاجب الأصفهاني: «كَب» ٥٤٣/٢.

(٢) انظر لسان العرب: «كَب».

(٣) تفسير الطبري ٥٥/١٩.

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

ولا صديق حميم: الحميم القريب المشفق الذي كأنه يحتد ويهتم ويهتم
حماية لذويه^(١) والحميم في الأصل الماء الشديد الحرارة^(٢).

كرّة: رجعة إلى الدنيا فنؤمن بالله فنكون بإيماننا به من المؤمنين^(٣).

قال العابدون للمعبودين الضالّين المضلّين وقد غابوا عنهم وخذلوه في
ذلك الظرف العصيب: والله الذي لا إله إلا هو إنّنا كنّا في الدّنيا لفي ضلال واضح
وخطأ بين حين نسويكم ربّ العالمين ونشرككم معه عزّ وجلّ في العبادة. إنّنا لم
يضلّنا عن سواء السبيل إلا المجرمون من شياطين الجنّ والإنس. إنّنا ليس لنا اليوم
من شافعين يشفعون لنا بسبب إشراكنا مع الله تعالى تسواه وارتكابنا ذلك الذّنب
الذي لا يغفره الله تعالى ذنب الشّرك، وليس لنا كذلك من صديق حميم يؤلّه
مصائبنا، ويتحرّق ألماً لعجزه عن مدّ يد العون لنا. إنّنا نستحقّ الذي يجرى لنا. وإنّا
لو كان لنا فرصة كي نعود إلى الحياة مرّة أخرى فإنّا سنكون مؤمنين وسنعمل غير
الذي كنّا نعمل وهيهات.

(١) انظر مفردات الرّاجب الأصفهاني: «حم» ١٧٢/١.

(٢) نظر مفردات الرّاجب الأصفهاني: «حم» ١٧١/١ ومعجم مقاييس اللّغة: «حم» ٢٣/٢.

(٣) تفسير الطّبري ٥٦/١٩.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

إن في ذلك الذي جرى للمجرمين على جهة الخصوص في نار جهنم، وفيهم آزر وقومه، لآية دالة على قدرة الله تعالى المطلقة، وعلى صدق محمد بن عبد الله ﷺ. وما كان أكثر أهل مكة مؤمنين. وإن ربك يا محمد لهو العزيز في ملكه الفعال لما يريد، الرحيم بالمؤمنين رحمة خاصة بهم، الذي وسعت رحمته كل حي وشيء.

(٤)

(نِجَاةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَأَصْحَابِ السَّفِينَةِ وَغَرَقَ الْبَاقِينَ)
الْآيَاتُ (١٠٥-١٢٢)

كَذَّبَتْ

قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾

كَذَّبَتْ قوم نوح المرسلين: تأنيث قوم باعتبار معناه. وتذكيره باعتبار لفظه^(١)
وجاءت لفظة المرسلين في صيغة الجمع لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، أو لطول
لبثه فيهم كأنه رسل^(٢).

إذ قال لهم أخوهم: نسباً^(٣).

إن أجري: ما ثوابي^(٤) وجزائي^(٥).

بعد حديث السّورة الكريمة عن قوم موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى
إسرائيل، وقوم إبراهيم عليه السّلام، أبى الأنبياء، صلوات ربّ العالمين وسلامه
عليهم أجمعين، من زاوية تكذيب القوم وعقابهم، يتمّ التّحوّل إلى قوم نوح عليه
السّلام، أوّل رسل الله تعالى إلى النّاس، ويكون الحديث عنهم من الزّاوية ذاتها
زاوية التّكذيب فالعقاب. لقد كذّب قوم نوح عليه السّلام أوّل رسول أرسله الله
تعالى إلى النّاس، على الرّغم من كون نوح عليه السّلام لبث في قومه ألف سنة
إلا خمسين عاماً بنصّ القرآن الكريم^(٦) ولما كان نوح عليه السّلام قد أرسله الله

(١) الجلالين.

(٢) انظر الجلالين.

(٣) الجلالين.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطبري ٥٦/١٩.

(٦) الآية رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

تعالى بالدعوة إلى التوحيد كما أرسل سائر المرسلين، فإن في تكذيب قومه له عليه السلام تكذيباً لسائر المرسلين، ولهذا جاءت لفظة: «المرسلين» في صيغة الجمع. ثم إن الفترة الطويلة التي أمضاها نوح عليه السلام يدعو قومه كأنها لطولها غير العادي فترات أمضاها كوكبة من الرسل الكرام في الدعوة إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد. لقد كذب القوم نوحاً عليه السلام حين دعاهم إلى توحيد الله تعالى وحثهم على اتقاء عذاب الله تعالى بعمل الطاعات وعلى بلوغ مرتبة التقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ويبين عليه السلام لقومه أنه رسول الله تعالى إليهم، وأنه أمين في تبليغ الرسالة، فلا يزيد فيها ولا ينقص ولا يقصر. إن عليهم أن يتقوا الله تعالى وأن يطيعوا نوحاً رسول الله تعالى إليهم. ويبين نوح عليه السلام لقومه أنه لا يسألهم على تبليغه أدنى أجر، رغم أنه يقوم بأجل عمل وأخطر مهمة. ما أجر نوح عليه السلام وثوابه إلا على الله تعالى رب العالمين وخالق كل شيء.

وللمرة الثالثة يدعو نوح عليه السلام قومه إلى تقوي الله تعالى وللمرة الثانية يدعوهم إلى طاعته فيما أرسله الله تعالى به وذلك بتوحيد الله تعالى وإفراده عز وجل بالعبادة. لقد كان ذلك في الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
 قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي
 لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾

واتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ: الأَرذَلُونَ جمع الأَرذل. وهو الدون من الناس الخسيس (١)
 قال الزَّجَّاجُ: نسبوهم إلى الحياكة والحِجامة (٢).

(١) لسان العرب: «رذل».

(٢) سان العرب: «رذل».

إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ: مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ بِأَسْهٍ وَسُطُوتِهِ عَلَى كُفْرِكُمْ بِهِ^(١).

مبين: قَدْ أَبَانَ لَكُمْ إِذْ بَارَهُ وَلَمْ يَكْتُمْكُمْ نَصِيحَتَهُ^(٢).

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَشْرَافُ فِي أَسْلُوبِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ: أَنْتُمْ مَنْ لَكَ يَا نُوحٌ وَنَصَدَّقَكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتَّبِعُكَ فِيكَ الْأَرْذَلُونَ وَغَيْرُ ذَوِي الشَّرَفِ وَالثَّرَاءِ مِنْ مُحْتَرَفِي الْحَيَاكَةِ وَالْحِجَامَةِ وَنَحْوَهُمَا. أَتُرِيدُ مِنَّا يَا نُوحُ أَنْ نَهْبِطَ إِلَى مَسْتَوَى هَؤُلَاءِ الدُّونِ مِنْ أَتْبَاعِكَ الَّذِينَ تَحْتَقِرُهُمُ النَّفْسُ وَتَزْدَرِيهِمُ الْعَيْنُ! وَيُجِيبُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكِبْرَاءَ الْمُتَكَبِّرِينَ قَائِلًا: وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانَ يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْخَفَاءِ، وَمَا شَأْنِي بِبَاطِنِهِمْ وَبِمَا تَضْمُرُهُ قُلُوبُهُمْ. إِنَّ مَهْمَّتِي تَقِفُ عِنْدَ الظَّاهِرِ، وَقَدْ أَظْهَرُوا إِيمَانَهُمْ، أَمَّا مَا يَكْتُمُونَهُ فِي نَفْسِهِمْ وَمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ دَرَائِي وَفِي الْخَفَاءِ فَإِنَّ عِلْمَ كُلِّ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَحَاسِبُهُمْ وَيَجَازِيهِمْ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا دُونَ سِوَاهُ. لِيَتَكَمَّ أَيُّهَا النَّاسُ تَدْرِكُونَ هَذِهِ الْمَعَانِي وَتَتَصَرَّفُونَ فِي ضَوْئِهَا وَتَكْتَفُونَ بِالظَّاهِرِ وَلَا تَهْتَمُّونَ بِالْمَظَاهِرِ وَتَبَادِرُونَ إِلَى الْإِيمَانِ.

وَكَأَنَّ السَّادَةَ وَالْكَبْرَاءَ طَلَبُوا مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَدْعُونَهُ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، جَرِيًّا عَلَى عَادَةِ السَّادَةِ وَالْكَبْرَاءِ فِي عَهْدِ كُلِّ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَسَلَامُهُ أَجْمَعِينَ. وَهِيَ هُوَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْفُضُ طَلِبَ السَّادَةِ وَالْكَبْرَاءِ أَنْ يَطْرُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَلَأِ أَنَّ مَهْمَّتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقِفُ عِنْدَ الْإِنْذَارِ الْبَلِيغِ، أَمَّا الْحِسَابُ فَعَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَلِلَّهِ عِزٌّ وَجَلَّ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ رَمَنْ بَعْدَ.

(١) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ ٥٧/١٩.

(٢) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ ٥٧/١٩.

قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
 رَبِّ إِنَّا قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
 مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ
 ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾

فافتح بيني وبينهم فتحاً: فاحكم بيني وبينهم حكماً من عندك تهلك به
 المبطل وتنتقم به ممن كفر بك وجحد توحيدك وكذب رسولك^(١).
 في الفلك المشحون: في السفينة الموقرة المملوءة^(٢).

أصرّ قوم نوح عليه السلام على الكفر وتكذيب نوح عليه السلام وهددوه
 عليه السلام بأنه إن لم يكفّ عن دعوتهم إلى توحيد الله تعالى فإنه سيكون من
 المرجومين بالحجارة حتى الموت. وإن نوحاً عليه السلام عبد الله تعالى ورسوله
 المضطّرّ ليجأ إلى ربه جلّ وعلا بشكواه من تكذيب قومه له، ويدعوه عزّ وجلّ
 بأن يحكم بينه عليه السلام وبين القوم المجرمين، ويسأله جلّ وعلا أن ينجّيه
 وينجّي من معه من المؤمنين القليلي العدد آنذاك. وإن ربّ العزّة والجلال ليستجيب
 دعاء نوح عليه السلام، وينجّي نوحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الفلك
 المملوء بالمؤمنين وبالزّوجين الاثنين، الذّكر والأنثى، من كلّ صنف ونوع. ثمّ أغرق
 الله تعالى بعد ذلك الباقيين خارج السفينة.

(١) تفسير الطبري ٥٧/١٩.

(٢) تفسير الطبري ٥٧/١٩.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي حَدَثَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ غَرَقٍ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِقِيَادَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ
السَّلَامِ مِنْ نَجَاةٍ فِي الْفَلَكَ، لَآيَةً دَالَّةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَمَا كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِ مَكَّةَ
مُؤْمِنِينَ، رَغْمَ كُلِّ آيَاتٍ وَالتَّنْذِرِ. وَإِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدٌ لَهُوَ الْعَزِيزُ فِي مَلِكِهِ الْقَهَّارِ
لِلْكَافِرِينَ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ وَحْيٍ.

(٥)

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَأَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى

بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

الآيَات (١٢٣-١٤٠)

كَذَّبَتْ

عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٨﴾
وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٠﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٢﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٤﴾

إن أجري إلا على رب العالمين: ما جزائي وثوابي على نصيحتي إياكم إلا على رب العالمين^(١).

بكل ريع: الرّيع المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد^(٢) وكلّ مكان مشرف من الأرض مرتفع أو طريق أو واد. وفيه لغتان: ريع وريع بكسر الراء وفتحها^(٣). آية: بياناً علماً^(٤).

تعبثون: تلعبون^(٥).

وتتخذون مصانع: الصُّنع: إجادة الفعل. فكلّ صنع فعلٌ وليس كلّ فعلٍ

(١) تفسير الطبري ٥٨/١٩.

(٢) مفردات الرّاجب الاصفهاني: «ريع» ٢٧٤/١.

(٣) تفسير الطبري ٥٨/١٩ وانظر معجم مقاييس اللغة: «ريع» ٤٦٧/٢ و٤٦٨.

(٤) تفسير الطبري ٥٨/١٩.

(٥) تفسير الطبري ٥٨/١٩.

صُنْعًا. وللإجادة يقال للحاذق المُجيد صَنَعَ، وللحاذقة المُجيدة صَنَاع. وعُبر عن
الأمكنة الشريفة بالمصانع^(١) والمصانع هي القصور المشيدة، والحصون، وكل
مكان مغلّد^(٢).

لعلّكم تخلصون: كأنكم تخلصون^(٣) لا تموتون^(٤).

وإذا بطشتم بطشتم جبارين: وإذا سطوتم سطوتم قتلاً بالسيوف وضرباً
بالسيّاط^(٥).

أمدّكم بما تعلمون: أعطاكم من عنده ما تعلمون وأعانكم به^(٦)
وأنعم عليكم^(٧).

من المعروف أنّ عاداً قوم هودٍ عليه السّلام يتأخّرون زمناً عن قوم نوحٍ عليه
السّلام. جاء على لسان هودٍ عليه السّلام في سورة الأعراف^(٨) قول الحقّ جلّ
وعلا: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ ويبدأ الحديث عن عاد بما
بدأ به الحديث عن قوم نوحٍ عليه السّلام وهو التّكذيب. وبذلك يكون تكذيب
الأقوام لرسول الله تعالى إليهم منطلق الحديث عن الأقوام الذين تحدّثت السّورة
الكريمة عنهم والذين أهلكهم الله تعالى.

إنّ عاداً التي كانت تسكن جنوب الجزيرة العربيّة كذّبت رسول الله تعالى
إليها هوداً عليه السّلام. وبتكذيبها رسول الله تعالى إليها كأنّها كذّبت كلّ
المرسلين، لأنّ رسالتهم جميعاً واحدة، هي الدّعوة إلى توحيد الله تعالى. لقد
كذّبت عادٌ هوداً عليه السّلام حين قال لهم أخوهم نسباً هودٌ عليه السّلام ألا تتّقون

(١) انظر مفردات الرّأغب الأصفهاني: «صنع» ٣٧٥/٢ و٣٧٦.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٥٩/١٩.

(٣) تفسير الطّبري ٥٩/١٩.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ٥٩/١٩.

(٦) تفسير الطّبري ٦٠/١٩.

(٧) الجلالين.

(٨) الآية ٦٩.

عذاب الله تعالى بالإيمان وعمل الصالحات. إني يا قومي رسولٌ من الله تعالى إليكم أمينٌ وناصحٌ لكم. فاتقوا الله تعالى بإفراده بالعبادة وعمل الصالحات، وأطيعوني فيما أمركم به وأنهاكم عنه. وأنا لا أسألكم على تبليغي رسالة ربّي عزّ وجلّ من إجر. ما أجرى وثوابي إلّا على الله تعالى ربّ العالمين.

ولما كانت عادٌ مضرب المثل في القوّة، وقد انعكس ذلك في مجال البناء على جهة الخصوص، فإنّ هوداً عليه السّلام يسأل قومه في إنكار: أتبنون بكلّ مكان مرتفع يبدو من بعيد، أو طريقٍ أو واد، بنياناً يدلّ على قوتكم، وتضعون علامةً تدلّ على ترفكم ولعبكم وعبتكم، لأنّها غير ذات نفع لكم، ويقتصر دورها على أنّها سببٌ لحديث الناس عنكم. اتّخذون قصوراً مشيدة، وحصوناً شديدة، ومباني جديدةً لعلكم تخلّدون في الأرض وكأنكم بمنأى عن الموت. ومن عجيب صفاتكم أنكم إذا سطوتم سطوتم جبارين قتلاً بالسيف وضرباً بالسيّاط، فاتّقوا الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وأطيعوني فيما أبلغكم عن ربّي وربكم جلّ وعلا. ويلاحظ أنّ الأمر بتقوى الله تعالى يجرى في أربعة مواضع، وأنّ الأمر بطاعته عليه السّلام جاء في موضعين اثنين وذلك في الآية الكريمة التي جاءت مرتين اثنتين. قال تعالى: ﴿فاتّقوا الله وأطيعون﴾.

وإنّ هوداً عليه السّلام يذكر قومه نعم الله تعالى عليهم ويحذّرهم نقمه. إنّ عليهم أن يتّقوا الله تعالى الذي أنعم عليهم بالذي يعلمونه. إنّّه جلّ وعلا أنعم عليهم بالأنعام من إبلٍ وبقرٍ وغنم، وبالبساتين والعيون الجارية.

وإنّ هوداً عليه السّلام يخوّفهم عذاب الله تعالى في يوم القيامة العظيم، إنّ هم أصرّوا على شركهم إلى أن توفاهم الله تعالى، كما يخوّفهم عذاب الدّنيا، فما أكثر الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى إليهم، وما أشدّ أخذ العذاب لهم، وما أعظم انتقام الله تعالى منهم.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
 إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾

قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين: قالوا معتدلٌ عندنا وعظك إيانا وتركك الوعظ فلن نؤمن لك ولن نصدقك على ما جئتنا به^(١).
 إن هذا إلا خلقُ الأولين: ما هذا إلا دينُ الأولين وعاداتهم وأخلاقهم^(٢) والخلقُ والخلقُ في الأصل واحد كالشرب والشرب والصِّرم والصِّرم، لكن خُصَّ الخلقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخلقُ بالقوى والسَّجَايا المدركة بالبصيرة^(٣) ويقال الخلقُ والخلقُ. والخلقُ حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خير أو شرٍّ من غير حاجةٍ إلى فكر وروية^(٤) قال ابن عباسٍ إنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه ويطشهم بالناس بطش الجبابة وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم فأجابوا نبيهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك احتذاءً منهم سنة من قبلهم من الأمم واقتفاءً منهم آثارهم فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خلقُ الأولين، يعنون بالخلق عادة الأولين^(٥).

وما نحن بمعذبين: قالوا لهودٍ عليه السلام: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما الله معذبنا عليه، كما أخبرنا الله تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا. إنهم كانوا يقولون لرسولهم^(٦): ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾^(٧).

(١) تفسير الطبري ٦٠ / ١٩.

(٢) تفسير الطبري ٦٠ / ١٩.

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني: «خلق» ٢١٠ / ١.

(٤) المعجم الوسيط: «خلق».

(٥) انظر تفسير الطبري ٦٠ / ١٩.

(٦) سورة الزخرف ٢٣.

(٧) انظر تفسير الطبري ٦١ / ١٩.

أَصْرَ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَكَفْرَانِ النَّعَمِ وَقَالُوا لِهُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَسْتَوِي عِنْدَنَا وَعِظُكَ لَنَا وَعَدَمُ وَعِظُكَ. إِنَّا لَنُؤْمِنُ لَكَ، وَلَنْ نَتْرِكَ دِينَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، فَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مَهْتَدُونَ وَمَقْتَدُونَ. أَمَّا مَا حَلَّ بِالْأَقْوَامِ مِنْ هَلَاكِ وَبِلَاءٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَادَاتِ الدَّهْرِ، فَهُوَ تَارَاتُ يُسُوءُ وَتَارَاتُ يُسَرُّ، لَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَقَلَّ، وَلَا مَعْنَى لِتَهْدِيدِكَ لَنَا بِأَنَّا إِنْ كَذَّبْنَاكَ سَيَنَالُنَا مِنَ الْعَذَابِ مِثْلُ مَا نَالَ السَّابِقِينَ.

ثُمَّ إِنَّا بَعْدَ الْمَوْتِ لَنُعَذِّبُنَا رَبَّنَا، لِأَنَّا نُؤْمِنُ بِأَنَّهُ خَالِقُنَا وَرَازِقُنَا وَمُدَبِّرُ شُئُونِنَا. وَإِنَّ كُلَّ الَّذِي نَفْعَلُهُ هُوَ أَنَّا نَشْرِكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ. وَنَحْنُ فِي شُرْكِنَا نَقْفُو آثَارَ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا كَمَا تَبَيَّنَ.

وَهَكَذَا كَذَّبَتْ قَوْمُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ.

فَكَذَّبُوهُ

فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ

رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

أَصْرَتْ عَادٌ عَلَى تَكْذِيبِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَخَذَهُمُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. جَاءَ فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ ^(١) - مَثَلًا - قَوْلُ الْحَقِّ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾. إِنَّ فِي إِهْلَاكِ اللَّهِ تَعَالَى عَادًا لَآيَةً دَالَّةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِدِينِ الْإِسْلَامِ فِي صُورَتِهِ الْأَخِيرَةِ. وَمَا كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِ مَكَّةَ بِمُؤْمِنِينَ، رَغْمَ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالنَّذْرِ. وَإِنَّ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ لَهُوَ الْعَزِيزُ فِي مَلِكِهِ الْمُنْتَقِمِ مِنْ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، الرَّحِيمِ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ وَحِيٍّ.

(١) الْآيَاتُ ٦-٨.

(٦)

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ فَأَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى)

(بِصَاعِقَةِ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(الْآيَاتِ (١٤١-١٥٩))

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالَتَنْقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾

تتأخر ثمود عن عاد زمناً. وقد جاء في سورة الأعراف (١) على لسان صالح عليه السلام خطاباً لقومه قول الحق عز وجل: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام (٢).

لقد كذبت ثمود رسول الله تعالى إليها صالحاً عليه السلام الذي كان أخاً قومه نسباً، والذي دعاهم إلى توحيد الله تعالى واتقاء عذابه فكذبوه. وفي تكذيب صالح عليه السلام تكذيب لكل الرسل لأن رسالتهم واحدة. لقد بين عليه السلام لقومه أنه رسول الله تعالى إليهم، وأنه أمين في تبليغ الرسالة، فعليهم أن يتقوا الله تعالى وأن يطيعوه عليه السلام فيما يأمرهم به وينهائهم عنه. ويبين عليه السلام لهم أنه ما يسألهم من أجرٍ على تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة، شأنه في ذلك شأن كل الرسل الكرام، عليهم صلوات رب العالمين وسلامه أجمعين. ما أجره عليه السلام إلا على الله تعالى رب العالمين دون سواه.

(١) الآية ٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/١٦٥.

أَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاهُنَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

أتركون فيما ههنا آمنين: أترككم يا قوم ربكم في هذه الدنيا آمنين لا تخافون شيئاً^(١) وما: اسم موصول بمعنى الذي^(٢).

طلعها هضيم: الطلع غلاف يشبه الكوز يفتح عن حب منضود فيه مادة إخصاب النخلة^(٣) والكوز سنبل الذرة ويسمى المطر، بضم الميم^(٤) والهضيم: المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان فلاناً حقه إذا انتقصه وتحيفه، فكذلك الهضم في الطلع إنما هو التناقص منه من رطوبته ولينه، إما بمس الأيدي وإما بركوب بعضه بعضاً. وأصله مفعول صُرف إلى فاعيل^(٥).
فارحين: حاذقين بنحتها^(٦).

يستمر صالح عليه السلام قائلاً لقومه في أسلوب الاستفهام التقريري: أترككم ربكم جلّ وعلا في الذي أنتم فيه من الخير في هذه الحياة الدنيا، من

(١) تفسير الطبري ٦١/١٩.

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٦٢/٩.

(٣) المعجم الوسيط: «طلع».

(٤) انظر المعجم الوسيط: «مطر».

(٥) تفسير الطبري ٦٢/١٩.

(٦) تفسير الطبري ٦٢/١٩.

أمن، وحدائق، وعيون ماء، وزروع، وتخل، الذي يطلع من ثمرها النضيد متكسراً من لينه ورطوبته وركوب بعضه بعضاً، أيتركم ربكم في كل هذا النعيم دون أن تقوموا بما يجب عليكم من شكر لله تعالى على نعمه العظيمة عليكم، ألا تخافون أن يأخذكم عذاب الله تعالى الشديد بسبب كفرانكم النعم وكفركم بالله تعالى. ثم أنتم تنحتون من الجبال بيوتاً حاذقين بنحتها آمنين من أعدائكم. إن عليكم أن تتقوا الله تعالى، وأن تطيعوني، وأن تعصوا المسرفين الذين يسرفون على أنفسهم بارتكاب المعاصي، والذين يفسدون في الأرض حساً ومعنى ولا يصلحون.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾

من المسحورين: من المسحورين^(١) الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقلهم^(٢).

قال قوم صالح عليه السلام لبيهم ما أنت إلا واحد من الناس الذين سحروا كثيراً وغلب على قواهم العقلية قوى خفية شريرة استحوذت عليها وأفسدتها. ما أنت يا من يزعم أن الله تعالى أرسله إلا بشرٌ مثلنا تأكل مما نأكل منه وتشرب مما نشرب منه، وما نرى لك علينا من فضل. فإن كنت صادقاً في زعمك أن الله تعالى أرسلك فأت بآية تدل على صدقك وهيهات. ويلاحظ أن القوم يجيء على لسانهم القول: ﴿فأت بآية﴾ والمعروف أن جملة: «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على البعد. وتفيد الجملة هنا البعد المعنوي أو النفسي. إن الإتيان بالآية أمرٌ يستبعده القوم ويتمنون عدم حدوثه. ويقال إن ملاهم اجتمعوا واقترحوا

(١) تفسير الطبري ٦١/١٩.

(٢) الجلالين.